النهوض باللغة العربية، أولويات منهجية ومقاربات تدبيرية

د. مولاي المامون المريني

أما قبل..

تعتبر اللغة العربية من اللغات السامية (العروبية) البسيطة، التي وهبها القرآن الكريم سطوة وذيوعا منقطعي النظير. إذ كانت لغة قبائل الجزيرة العربية، المعروفة بالتجارة والتّرحال ونظم الشعر والتفنّن في جميل العبارة. إلى أن اصطفاها الخالق سبحانه لتكون لغة كتابه المبين، وحاملة لكثير من الشعائر والأحكام والفنون والعلوم، وكتب لها بذلك أن تسود وتحيى إلى ما شاء الله، وأن يظلّ القرآن الكريم مرجعها وضامن بقائها. وقد غدت لغة تواصل حيّ، وعلم وتعلّم وإبداع للعرب ولغيرهم، من جبال آسيا الصغرى إلى جنوب أروبا، ولغة عبادة وتدبّر في جميع أقطار المعمور. فقد وصف أبو الحسن الندوي الهندي (١٩١٤ ١٩٩٩) وضع العرب والعربية زمان تألّقهم وسيادة لغتهم بأن: "خضعت للغتهم اللغات، ولثقافتهم الثقافات، ولحضارتهم الحضارات، فكانت لغتهم هي لغة العلم والتأليف في العالم المتمدّن من أقصاه إلى أقصاه، وهي اللغة المقدسة الحبيبة التي يوثرها الناس على لغاتهم التي نشأوا عليها، ويؤلّفون فيها أعظم مؤلفاتهم وأحب مؤلفاتهم، ويتقنونها كأبناء أهلها وأحسن، وينبغ فيها أدباء ومؤلفون يخضع لهم المثقفون في العالم العربي، ويقر بفضلهم وإمامتهم أدباءُ العرب ونقادُهم"١. وبسط البلاغي اليهودي الأندلسي موسى بن عزرا (١٠٥٥ ١١٣٥) فضل العرب على اللغة العبرية إبان الحكم الإسلامي للأندلس قائلا: " ولما استفتحت العرب جزيرة الأندلس المذكورة على القوط الغالبين على الرومانيين أصحابها، بنحو ثلاثمائة سنة قبل فتح العرب لها، الذي كان على عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان، من ملوك بني أمية من الشام، سنة اثنين وتسعين لدعوتهم المسماة عندهم بالهجرة. تفهمت جاليتنا بعد مدّة أغراضهم ولُقّنت بعد لأي لسانهم وتبدّعت في لغتهم وتفطّنت لدقة مراميهم وتمرنت في حقيقة تصاريفهم وأشرفت على ضروب أشعارهم، حتى كشف الله إليهم من سر اللغة العبرانية ونحوها "٢. وغير هاتين الشهادتين كثير ووافر في مجال ما اضطلعت به اللغة العربية من أدوار حضارية وثقافية بارزة في احتضان منتوج فكري ثري ومتنوّع، اشتركت فيه مختلف القوميات والإثنيات والأجناس والثقافات. وكانت بذلك اللغة العربية وعاء رحبا لمجمل الأفكار والعلوم والإبداعات التي سادت وعمّت وازدهرت، ومرتكز أمة وأيقونة حضارة وهوية سادت إلى حدود القرن الرابع عشر الميلادي. يقول أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٢هـ) واصفا عزّ اللغة العربية ورغبة الأمم في الإقبال عليها: "لم يحرص الناس على تعلم شيء من اللغات في دهر من الدهور، ولا في وقت من الأوقات، كحرصهم على تعلم لغة العرب... ولا رغبوا في شيء من القرون والأزمنة رغبة هذه الأمة في لسان العرب من بين الألسنة، حتى إن جميع الأمم فيها راغبون، وعليها مقبلون، ولها بالفضل مقرون، وبفصاحتها معترفون... "٣.

وإن كان وضع اللغة العربية اليوم بعيدا جدا عمّا ذكرناه وما كان، فإن تطوّرها وتطويرها رهين بوضع أصحابها، وتفاعلهم مع تيارات العولمة والرقمنة، وحاجات الحياة العلمية والتكنولوجية والثقافية، ومع أوضاعهم الاجتماعية والسياسية وقضاياهم الصعبة، وارتباط كل ذلك بسؤال جوهري ومفصلي، يحدّد بوضوح جليّ سمات وجودهم وفعلهم في مدارج البقاء والرقيّ بأوضاعهم إلى مصافّ الأمم المتقدّمة. ولأنّ بقاء الجنس البشري مرهون بالضرورة بسماته الحضارية والثقافية واللغوية، فإن تحديد مكونات ه ذه السمات وتشخيصها عصيّ على من لا يسطّر أهداف تطوير الأوضاع ويحدّد أولوياتها، ويشتغل على تفاصيلها الدقيقة. وقد رأينا أنه من إواليات هذه المقاربة، الفعل الإيجابي لما يتيحه تطوير اللغة العربية من فهم الذات واستيعاب الخصوصيات الثقافية والفكرية والدينية وتحصينها، والانخراط الأكيد فيما تتيحه فرص التقدّم والتنمية من سبل وإمكانات.

أمّا بعد..

فإنّ تيسير شروط تطوير اللغة العربية

لن يتحقّق سوى عبر منظور شامل، يقف على المرتكزات التاريخية والعلمية التي بوّأت هذه اللغة مقاما حضاريا متميّزا، وعلى الواجب والمأمول من الجامعة، ومن برامج التكوين والتأهيل الأكاديميين. لأنه من مهامّ الدرس العربي والبحث العلمي حسب ذلك المنظور أن يسعيا إلى أداء المهام المتعلقة بتخريج الكفاءات اللغوية والعلمية المتخصصة، والملتزمة بواجبها القومي والوطني والأكاديمي والعلمي والإنساني في مجال عملها، وتمكينها من الشروط والأسباب التي تؤهّلها إلى الإسهام في النهوض باللغة العربية، بجانب اللغات الحية. ذلك عبر التركيز الهادف، والاهتمام بالمعارف العلمية المتخصصة والمعاصرة، وعلى اللغات والثقافات التي تفاعلت وانفعلت مع العرب ومع لغة القرآن، وتأكيد فلسفة التفتح الفكري التنويري، والرقي بالعلوم والآداب والفنون وتطويرها، والنهوض بتقديم الدّعم والاستشارات العلمية للهيئات والمؤسسات والجهات والأجهزة المعنية، وإجراء البحوث اللغوية واللسانية النظرية والتطبيقية، التي بإمكانها أنْ تسهم في رقيّ وضعنا العربي، وتنمية مجالنا الحيوي بشكل عامّ، وتَقَدُّمِهما عبر النهوض بدور اللغة العربية في التداول والتنمية البشرية، وطنيا وعربيا وعالميا.

١. تطوير الدرس اللغوي والعناية بمهن تدريسه،

يقتضي منّا ذلك مراعاة بعض الاعتبارات العينية والموضوعية الأساسية. ومنها:

- اعتبار التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية والسوسيو اقتصادية التي تمرّ منها الأمة العربية ومحيطها الجهوي والدولي، وما يقتضيه ذلك من توجّهات للإصلاح والتطوير،
- الانسجام مع الفترة الانتقالية المفصلية التي تعرفها الأقطار العربية، وتوجّهها التنموي بسرعات متباينة وبإمكانات مادية وبنماذج تنموية مختلفة، واعتمادها في التدريس والتواصل على لغات متعدّدة. وهو ما يستوجب استيعاب كافة الرؤى والمناهج والمقاربات التي تنتهجها، بأقل ضرر وبسرعة قياسية،
- اعتبار المستجدّات الفكرية والنظرية واللغوية والسياسية المطروحة وطنيا وإقليميا ودوليا، من أجل تحديد الأدوار التي يمكن أن تلعبها الجامعات العربية، في مجالات البحث اللغوي واللساني العربيين، بناء على الخصوصية العربية والانتماء الحامي السامي المشترك، وعلى التوجّه الأكيد نحو العالمية،
- ضرورة التفاعل والانفعال العلميين مع الحاجة إلى أدوار جديدة لمعاهد وكليات متخصصة في دراسة اللغة العربية وتطويرها، لتقارب النص الديني الذي يوجهه غير المتخصصين نحو فهم قاصر ومنحرف عن غاياته السامية. والعمل على استيعاب التوجهات الوطنية والقومية في المجالات الاقتصادية والسياسية والفكرية، وإفادة ملايين العرب والمسلمين في كل بقاع العالم،

إننا نعتبر أولا وقبل كل شيء أن عملية تطوير اللغة العربية، لا تستوجب بالضرورة صياغة أنموذج واحد أوحد، يسري إنجازه على كافة الجامعات والأقطار. كما لا يعني ذلك انزواءها منفردة داخل محيطها الضيف، من غير تخطيط وتنسيق وتكامل. ومما يتّسم فيه الوضع اللغوي في العالم العربي:

أ- التنوع اللغوي

إذ لكل دولة خصوصيتها الذاتية، وتنوّعها اللغوي واللهجي، وتباين محيطها الجغرافي واللساني. والواقع أن اللغة العربية تحيى في كل الأقطار بشكل عَالِم في المرافق الرسمية والدينية والجامعية، وفي الكتابات العلمية والثقافية والإبداعية، والصحافية المكتوبة والسمعية البصرية. وهذا هو المجال المشترك الذي يستوجب الجهد الأوفر والتنسيق الأكبر. غير أنّ التربة التي تنتج هذه العربية العالمة وترعاها، مختلفة ومتنوعة ومتعدّدة. تجمع ما بين الأمازيغيات والكردية والسويحيلية والقمرية والصومالية ولهجتي نجدي وحجازي والنوبية والمهري والآرامية والسريانية والآشورية والعبرية والأرمينية والفارسية والتركية والهندية والفيليبينة... بالإضافة إلى تأثير اللغات الجارة، وسيادة لغة المستعمر القديم على مجريات الحياة الاقتصادية والتعليمية والتداولية، مثل الأنجليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية. يمكن أن نضيف لكل ذلك وجود جاليات عربية متزايدة في أروبا وغيرها من دول العالم، دائمة التأثير والتأثر بلغات الدول المستقبِلة٤. وإذا كان فرجيسون٥ قد ميّز في مستوى الازدواجيّة بين استعمال لغتين مختلفتين، مثل العربيّة والفرنسية، أو استعمال لغة إلى جانب لهجة من لهجات تلك اللّغة، مستشهدا في ذلك بوضع أغلب الدّول العربيّة في الفترة

المعاصرة، ووسم ذلك الوضع بالثّنائيّة اللّغويّة(Diglossie)٦. فإن الأمر يتجاوز ذلك في بعض الدول العربية، التي تتعايش فيها أربع لغات في منطقة واحدة٧. فمن مهامّ الجامعات العربية ومراكز البحث اللغوي العربي أن تؤسّس لأبحاث أكاديمية وأطاريح تعمل على تأصيل الاستعمال العربي، وتحديد ضوابط الاشتقاق والمجاز والنحت والتوليد والقياس والتعريب والترجمة والاقتراض.

ب اتّساع الاستعمالات التكنولوجية والسمعية البصرية

تلعب وسائل الإعلام السمعي البصري، وانتشار الفضائيات العربية داخل الأقطار العربية وخارجها، أدوارا طلائعية في تداول اللغة العربية، عبر وسائل الاتصال والبرامج الإخبارية والثقافية والعلمية والرياضية... وغدا للغة العربية فضاء رحب للتداول والإسماع، وسلطة اعتبارية ومرجعية لترويج المصطلحات والمفاهيم والعمل على فهمها واستيعابها ونشرها. ممّا جعل من الصورة وأهمية الوقائع عنصرا مساعدا على ترويج اللغة العربية وترسيخ قيمتها التداولية. غير أن لهذا المكسب مخاطر جمّة، إذا لم يتمّ مواكبته العلمية والأكاديمية، ومصاحبة العاملين والمحررين والمراسلين والمتدخلين في المجال. إذ أصبحت لهذه الوسائل السمعية البصرية أيضا سلطة نشر الأخطاء وإضعاف المقدرات الإبداعية والثقافية وحجب كثير من التراكيب الفصيحة والمصطلحات الأصيلة. وعلى الجامعات العربية ومراكز البحث اللغوي العربي مهمّة تنسيق جهودها العلمية، وتأهيل العاملين في الحقل الإعلامي.

ج قصور الدراسات اللغوية العربية في التقاط حاجات مجتمعاتها.

تجد الجامعات العربية، ومؤسسات العلوم الإنسانية بشكل خاص، صعوبات معقّدة ومتعدِّدة في القدرة على التّكيف مع التحوّلات المهنية التي يحتاجها سوق الشغل، وفي مصاحبة التحوّلات المتسارعة التي تعرفها المجالات اللغوية والثقافية والسوسيو اقتصادية، وجعل اللغة العربية ركنا محوريا في إعداد التنشئة الاجتماعية، وبناء المواطن العربي القادر على رفع تحدي العولمة. إذ، من الواجب أن تواكب عروض التكوين من خلال البحث العلمي الهادف والحرص على الوضع الرمزيّ والاعتباريّ والقانونيّ للّغة العربيّة إعداد الشخصية العربية لغويا وثقافيا، والحرص في ذلك على ثوابت الأمة في الاعتدال والتسامح الإثني والثقافي، وعلى انتظارات الدول العربية في سياساتها العامة. ولا يخفى على أحد اليوم فشل السياسات العربية في تدبير التعدّد اللغويّ، وتكريس الازدواجيّة اللغوية غير المتكافئة، وهيمنة لغات دخيلة على أهمّ القطاعات الحيويّة والمنتجة، وعدم وجود سياسة لغويّة واضحة، وتخطيط لغويّ له أبعاده ومقاصده وغاياته، والارتجال في معالجة القضايا والمعضلات اللغويّة في التعليم والإعلام والإدارة وغير ذلك من القطاعات الوازنة والمؤثّرة في الحياة العامّة داخل المجتمعات العربية. ممّا يجعل اللغة العربيّة تتخلّى عن وظائفها الطبيعية التي تنصّ عليها الدّساتير العربيّة والقوانين الجاري بها العمل٨، لتقوم بها في أغلب الأقطار العربية لغات أخرى، وتقوّض دعامات المجتمع والثقافة والهويّة. وتهجّن اللغة، وتدجّن المواطنين وتمسخ هويّتهم، حتّى تتمكّن بكل بسر من غرس أنياب التبعيّة. ونتيجة لكل ذلك، تفقد اللغة العربية دورها الأساسي في النهوض بالمجتمعات العربيّة، بتعطيل دورها في إنتاج المعرفة التي تتأسّس التنمية على أركانها. لا نريد أن يصير قولنا في هذا المقام عبارة عن دعوة إلى العودة إلى لغتنا القومية وحدها. لأنّ واقع الازدواجية اللغوية، والتعدّد اللغوي، أصبح مسألة عادية وضرورة حضارية سائدة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها. وإنّما ندعو إلى ازدواجية، أو تعدّد حقيقي، تُتداول فيها اللغة العربية وتنمو وتتطوّر بالتعايش الدلالي والنفعي مع لغات عالمية مهذّبة. والحال أنّنا نسير نحو خليط هجين من اللغات، يجمع ما بين العربية واللهجة المحلية واللغة الأجنبية السائدة، ونسمع ذلك في الأغاني والإذاعات والقنوات وفي الدروس والمحاضرات وفي الحديث اليومي السائد. وبذلك يمكن أن تضيع العربية وتختفي، وتضيع معها اللغة واللغات الثانية، وأن نؤسس للهجات محلية ضيقة جدا وعاجزة عن القيام بأي دور تواصلي وثقافي وحضاري. وبناء على كل ذلك، فإنه على أصحاب القرار السياسي قبل غيرهم أن يتيقّنوا من أن مسار التنمية العربية، يمرّ بالضرورة من مسالك التنمية اللغوية، وعلى الجامعات العربية العمل على تجديد برامج تدريس اللغة العربية بشكل دائم، وفق حاجات مجتمعاتنا المتجددة، وعلى ضوء أحدث المستجدّات التربوية والعلمية.

٢. الانفتاح على اللغات الحية

والعناية بمهن الترجمة،

يكتنز تاريخ اللغة العربية ذخائر متميّزة في تمرير مصادر الفكر والعلوم والآداب من وإلى العربية، وتَبْيِئَتِها وسط محيطها بكل يسر وسلاسة ونجاعة. وقد برهن لنا معجم الشعر الجاهلي والقرآن الكريم في مرحلة أولى ومجمل التراث العربي في دار الإسلام، عن سيولة معرفية عظيمة ما بين عدّة تجارب حضارية وفكرية، شكّلت فيها اللغة العربية قطب الرحى وجسور الأخذ والعطاء٩. فقد أسّس الخليفة العباسي هارون الرشيد بيت الحكمة(أو خزائن الحكمة) في بغداد سنة ١٧٠هـ، وكانت أول دار علمية تقام في أوج الحضارة الإسلامية. فقد كان أبو جعفر المنصور١٠ مهتمًا بعلوم الحكمة، فتُرجِمت له كتب في الطب والنجوم والهندسة والفلسفة والآداب، خصص لها خزانات في قصره لحفظها، حتى ضاق عنها. ثمّ أخرج هارون الرشيد لما تولى الحكم الكتب والمخطوطات التي كانت تحفظ في جدران قصر الخلافة، لتكون مكتبة عامة مفتوحة أمام الدارسين والعلماء وطلاب العلم. وأضاف إليها ما اجتمع عنده من الكتب المترجمة والمؤلفة، فتوسعت خزانة الكتب، وغدت لها أقسام وأجنحة، ومن يقوم بالإشراف عليها، ومن يتولّون ترجمة الكتب المختلفة من الحضارات المجاورة إلى العربية، وتحولت من مجرد خزانة للكتب القديمة إلى بيت للعلم ومركز للبحث العلمي والترجمة والتأليف والنسخ والتجليد، كما أصبح لبيت الحكمة دوائر علمية متنوعة، لكل منها علماؤها وتراجمتها ومشرفون يتولون أمورها المختلفة. عاش بيت الحكمة في عهد المأمون عصره الذهبي، فاتّجه لجلب الكتب اليونانية من بلاد الروم وترجمتها، وبرزت في عهده أسماء كبيرة في حركة النهضة العلمية، في علم الفلك والطب والفلسفة... ترجمةً وتأليفًا. وقد كان عهد المأمون أزهى عصور بيت الحكمة، وأضحى له أثر عظيم في تطور الحضارة الإسلامية، كما كان المحرك الأساس لبداية العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، وأسهم إسهامات كبيرة في مجالات الطب والهندسة والفلك. وقد عمل بيت الحكمة بشكل جلي على إنقاذ التراث العالمي من الفناء والضياع، بجلبه كنوز المعرفة من أنحاء العالم وترجمتها ثم حفظها ونشرها، وإنشاء مراكز علمية ومدارس جديدة في كل من خراسان والرّي وأصبهان وأذربيجان ومصر والشام والأندلس، ممّا شجّع على تأسيس مراكز علمية على غراره في كثير من البقاع الإسلامية، مثل مكتبة العزيز في القاهرة ومكتبة الزهراء في قرطبة١١. غدت اللغة العربية بالإضافة إلى ذلك لغة دّون بها غير العرب، من المسلمين وغيرهم، كثيرا من العلوم والآداب الخاصة بهم، وأسهموا عن طريق التأليف بالعربية والترجمة منها، في سيادة هذه اللغة وإثراء معجمها وأساليبها١٢. أوردنا هذه الأمثلة من تاريخ اللغة العربية لنؤكّد على مسلّمة وواقع حال. فأما المسلّمة فهي أنّ للغة العربية كلّ مقومات التّطوّر والحياة، معجميا وصرفيا ونحويا، ولها أيضا مجمل الآليات الاشتقاقية والصرفية لخلق معاني جديدة من جذور عربية قائمة، أو تعريب كلمات أجنبية وفق الأوزان الصرفية والانسجام الصوتي العربيين. وما كان ذلك أبدا عائقا لتصبح عربية الشعر والخطابة حاملة لكتاب الله تعالى، ولا لتغدو لغة فقه وتفسير وأحكام وفلسفة وعلوم ونحو وبلاغة وتاريخ وفلك وفيزياء وطبّ وكلام وتشريح... ويبقى واقع الحال أن يقتنع الفاعل السياسي والباحث الأكاديمي بحتمية الانفتاح على اللغات العالمية المهذّبة، ويعملان على شيوعها والارتكاز على تجاربها الناجحة في شتّى المجالات، بالشكل الذي يذيب الحواجز ويرفع الغبش أمام ذيوع المعرفة والمعلومة، ومواكبة المستجدّات بطريقة آنية وفورية، ونقل معارف العرب واجتهاداتهم وأفكارهم وهمومهم إلى الآخر بيسر وسرعة وبدون واسطة. إنّ ما تبذله الحكومات العربية بأحجام متفاوتة، وتتجشّمه كثير من العقول في هذا المجال كثير ووافر. مثل تدريس عدد من اللغات الأجنبية في كافة أسلاك التعليم، من الابتدائي إلى العالي، وتأسيس معاهد ومدارس للترجمة والتعريب١٣، وتوفّق كثير من المترجمين المتخصصين في ترجمة أعداد محترمة من الكتب الأجنبية، ونهوض النشاط المؤسسي الذي احتوى الكثير من الجهود الفردية واجتهادات دور النشر. غير أنّ ذلك يبقى دون المطلوب والواجب بكثير. إذ تشير إحدى الإحصاءات إلى إنّ نسبة ما يترجم من اللغة الإنجليزية إلى لغات العالم يتجاوز ٤١ في المائة من مجموع ما يترجم من اللغات الأخرى. وفي مقابل ذلك الرقم المهول والدّال على الهيمنة التي تمارسها تلك اللغة على المشهد الثقافي العالمي، يقتسم العالم العربي والصين ما يقلّ عن ١ في المائة من نسبة ما يترجم من لغتيهما أو لغاتهما١٤. ما يجعل المهتمين والدارسين

العرب، إما يتوسّلون إلى المنشورات بلغتها الأصل، أو تغيب عنهم بالمرّة وتحتجب وراء لغاتها. وهو ما يؤخّر المعرفة ويعطّلها، ويعيق سرعة الفعل والتفاعل مع المستجدّات العلمية والفكرية. ذلك، بالإضافة إلى ضمور أهداف عمليات الترجمة وضبابية الغايات منها وغياب استراتيجيات واضحة فيما ينجز من أعمال، يعتمد الكثير منها على تقديرات شخصية ومزاجية وظرفية، وعلى حجم المقابل أو الدعم الذي تتلقاه المعاهد والمؤسّسات والمترجمون.

٣- ربط الدراسات العربية بالمجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية ذات الصلة بالهوية العربية الإسلامية.

لمّا دعونا إلى ضرورة تطوير الدرس اللغوي والعناية بمهن تدريسه، حتى تتمكّن اللغة العربية من مسايرة ركب التقدّم الكوني والتنمية القومية، وأكّدنا ضمن هذا المسار على حتمية الانفتاح على اللغات الحية والعناية بمهن الترجمة، فإنّما لنتمكّن من مدّ جسور المعرفة والفعل التراكمي ما بين الثقافات والعلوم والأجناس البشرية. لأننا متيقنون من أنّ الحضارات لا تموت إلاّ بإرادة أصحابها، حين يضيّعون بذور سماتهم المميّزة ويفقدونها، ومن أنّ لحمة هذه السمات وترياق استمرارها يكمن بالأساس في الوعاء اللغوي الذي منه نرتوي وننتعش ونستمرّ. إن إعمال الفكر في القضايا الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وفق حاجات الناس وتطلّعاتهم وما يمكن أن ينفعهم، يمرّ بالضرورة من قناة اللغة[١٥]. تلك اللغة التي بها نفكر ونحيا. ولتكون كذلك ينبغي أن تتّسم هي أيضا بالقدرة على فضيلة التفكير وشرف الحياة. وليس بمقدور أيّ لغة أن تنال شرف الحياة من غير أن تكون معولا شغّالا في الوصف والتنظير وبسط الأفكار والعلوم والخوض في شؤون الإنسان والسعي الدّائم والمستمرّ لتلبية شروط التواصل والاتّصال والإيصال، والقدرة على الانسجام مع كافة المتطلّبات الجديدة والمتجدّدة. نظرتنا لهذا الوضع المتقدّم الذي نريده للغة العربية ونبتغيه، نظرة ممكنة حسب طبيعتها النحوية والصرفية والمعجمية، وقاصرة مؤقّتا لانحياز كثير من الباحثين فيها إلى بعض الاعتبارات غير اللغوية في مجال تطويرها والنهوض بها. وسأتجرّأ بناء على ذلك في طرح بعض التساؤلات البسيطة:

- كيف نتصوّر تطوّر اللغة العربية بمنأى عن سماتها التاريخية، من نشأتها وسط محيط شرقي "حامي / سامي"، وتوحّدها في سمت الشاعر الجاهلي، وانبعاثها المعجز في عربية القرآن الكريم المنفتحة، وتأثّرها بثقافات الحضارات السابقة، وولوجها ميدان تدبير الدولة واحتواء العلوم ونشرها.
- كيف نتصوّر تطوير المجتمعات التي تشتغل بالعربية بوسائط لغة مَتْحَفية ومن وراء حجاب.
- كيف يمكن رأب الصدع في ذواتنا أولا ما بين إيماننا المبدئي برمزية اللغة العربية وقيمتها الاعتبارية، وبين إقصائها من حياتنا العملية والعلمية.

وهنا ينبغي أن نسجل بافتخار الدور الذي تلعبه مثل هذه اللقاءات العلمية على صعيد الوطن العربي، ونمتنّ للقائمين على تنظيمها بجليل التقدير على ملء الهوّة وضمّ الجهود وتحديد المشاكل والحاجات واقتراح الحلول. وسنستغل هذا المحفل المبارك لنجعل من تساؤلاتنا ورش عمل نقترحه على أصحاب القرار وعلى الباحثين. عنوان هذا الورش هو التآلف بين علوم العصر، المطبوعة بسمات العولمة وسيادة الوسائط الرقمية، وبين وضع الهوية العربية الإسلامية، وصلا تها بالمجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية السائدة. لأنّ اللغة ليست آلية للتعبير والتواصل وحسب، وإنما هي أيضا مقدرة إنسانية تمكّن من إنتاج المعرفة وبلورة الإبداع والتعبيرات الإنسانية والفنية، وهي بذلك عامل مفصلي في بناء المجتمعات وتشكّلها وفاعل مركزي في تنمية الأمم. وعندما نتحدث عن "الأمة العربية" كما هي اليوم قائمة في وجداننا العربي، فإننا نتحدث عن كيان نشأ وتطور مع الإسلام وانتشاره[١٦]، ورافق بناء دول دار الإسلام وكان سندا لحضارتها. وبناء على ذلك، فإن اللغة العربية إذا لم تساير الآن هذا المنحى الوظيفي الأساس، وإذا لم تصبح وسيلة محورية في استيعاب المعارف وتملّكها وتبليغها وتشغيلها، فإنها ستخرج لا قدّر الله من التاريخ، ويغدو أصحابها مجرّد لقطاء يقتاتون على موائد الأغيار. وقد صدق الشاعر اللبناني أمين ناصر الدين عندما صدح بالقول:

لكُلّ قوم لسانٌ يُعْرَفونَ به
إنْ لم يصونوه لم يُعْرَفْ لَهُمْ نَسَبُ
وإنّ مَوْطِنَ عُرْب يَرْطُنونَ وَإنْ
عَلَتْ مبانيه لَهْوَ الموطنُ الخَرِبُ
لنْ يُدرِكَ المَجْدَ شعْبٌ ما لَهُ لُغَةٌ
تحوطُها دولةٌ أَسيافُها قُضُبُ
لَها حُماةٌ على اسْتقلالها غُيَرٌ
وجَحفلٌ ذائدٌ عَنْ حَوضِها لَجِبُ[١٧]

الهوامش

١- أبو الحسن الندوي. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. ١٩٤٥، طبعة دار الإيمان. المنصورة طبعة منقحة ومحققة ومزيدة ، ص ٢٥٥.

٢- موسى بن عزرا. المحاضرة والمذاكرة. حققه وقدّم له الأستاذان أحمد شحلان والسعدية المنتصر. المركز الوطني للبحث العلمي والتقني، الطبعة الأولى، الرباط. ٢٠١٣. ص. ١٤٥.

٣- أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي. كتاب الزينة في الكلمات العربية الإسلامية. تحقيق حسين بن فضل الله الهمداني. تقديم: الدكتور إبراهيم أنيس. مركز الدراسات والبحوث اليمني – صنعاء. الطبعة الأولى ١٩٩٤. ص. ٧٣.

٤- العودة إلى كثير من التفاصيل في كتاب: رجاء وحيد دويدري. المصطلح العلمي في اللغة العربية. الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق. ٢٠١٠. ص. ٣٤ وما بعدها.

Taïeb Baccouche .La langue arabe dans le monde arabe . L'information grammaticale. Année ٢ ١٩٩٨ pp. ٥٤-٤٩

٥- شارل فيرجيسون(١٩٢١-١٩٩٨). باحث لساني أمريكي، من مؤسسي السوسيولسانيات وعلى الخصوص ما يعرف بالدايكلوسيا (la diglossie):

٦ – Charles A. Ferguson. Diglossia. Word ١٥. p. ١٩٥٩ ،٣٤٠-٣٢٥

٧- يتداول أغلب سكان منطقة "دريوش"، المتاخمة لمدينة سبتة المغربية المحتلة، اللهجة الأمازيغية الأم، واللغة العربية لغة التعبد والتعلم، واللغة الفرنسية لغة الإدارة والتعلّم، واللغة الإسبانية لغة الجوار والتجارة.

٨- يقرّ الفصل الخامس من دستور المملكة المغربية بكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد، ويتعهّد بحمايتها: "تظل العربية اللغة الرسمية للدولة، وتعمل الدولة على حمايتا وتطويرا، وتنمية استعمالا. تعدّ الأمازيغية أيضا لغة رسمية للدولة، باعتبارا رصيدا مشتركا لجميع المغاربة بدون استثناء" .وتشير المادة السابعة من دستور الإمارات العربية المتّحدة إلى أنّ: "الإسلام هو الدين الرسمي للاتحاد ، والشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع فيه ، ولغة الاتحاد الرسمية هي اللغة العربية" . وتنصّ المادة الثانية من دستور جمهورية مصر العربية على أنّ: "الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع" . وتتعهّد المادة الأولى القانون ٠١,٠٠ المتعلق بتنظيم التعليم العالي في المملكة المغربية بالعمل: " على مواصلة تطوير التدريس باللغة العربية في مختلف ميادين التكوين، وتسخير الوسائل الكفيلة بالدراسة والبحث اللغوي والثقافي الأمازيغي وإتقان اللغات الأجنبية وذلك في إطار برمجة محددة لتحقيق هذه الأهداف".

٩- تزخر مصادر فقه اللغة العربية بأبواب قارة تناقش مظاهر الدخيل والمعرّب والاقتراض... مما يدل أن عمليات التأثّر باللغات الحضارية القديمة، ونقل مصطلحاتها وضبطها وتقعيدها أضحت علما ضروريا للمشتغلين على تطوير اللغة العربية وتيسير استيعابها للطفرة العلمية التي تعيشها منذ بدايات الفتح الإسلامي. وازدهرت تبعا لذلك مجموعة من العلوم اللغوية الأساسية، مثل علوم المصطلح والنحو والصرف والتفسير.

١٠- أبو جعفر المنصور(٩٥ هـ/ ٧١٤م - ١٥٨هـ /٧٧٥م). هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ثاني خلفاء بني العباس. هو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية،

١١- مفتاح يونس الرباصي . المؤسسات التعليمية في العصر العباسي الأول ١٣٢-٢٣٢ هـ. الطبعة الأولى. القاهرة – مصر ٢٠١٠. منشورات جامعة ٧ أكتوبر. صفحة ١٠٤ وما بعدها(بتصرّف).

١٢- نمثّل هنا ببعض النماذج البارزة من كتب علم الكلام والفلسفة والنحو والبلاغة... اليهودية، التي تمّ تأليفها منذ منتصف القرن التاسع الميلادي، في قرطبة وبغداد، باللغة العربية. مثل كتاب دلالة الحائرين لموسى بن ميمون، وكتابي الأصول واللمع لمروان بن جناح القرطبي، وكتاب المحاضرة والمذاكرة لموسى بن عزرا. وغير ذلك كثير. يُرجع في ذلك إلى:

Georges Vajda. Introduction à la pensée juive du moyen âge; Paris. Vrin. ١٩٤٧. Un vol. in٢٢٥ ، ٨- p. (Etudes de Philosophie médiévale. XXXV).

١٣ نشير على سبيل الاستئناس إلى شعب اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والروسية... ، وإلى تدريس اللاتينية والتركية والفارسية والعبرية والأردية... في كثير من الجامعات العربية. وإلى إنشاء المغرب في مستهل الستينيات مؤسستين مخصّصتين للتعريب: معهد الدراسات والأبحاث للتعريب التابع لجامعة محمد الخامس (١٩٦٠)، والمكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي التابع للمنظمة العربية للتربية

والثقافة والعلوم (١٩٦١)، ومدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، ومشروع كلمة في أبوظبي بالإمارات العربية المتحدة الذي تميز كمّاً وكيفاً في إصداراته التي قاربت ألف كتاب منذ انطلاقته عام ٢٠٠٧.

١٤- عن: سعد البازعي. (بعض هموم الترجمة في يومها العالمي). مشروع كلمة، موقع المنظمة العربية للترحمة.

١٥- يقول هيجل: "نحن نفكر داخل الكلمات". وإلى نفس الاتجاه ذهب غوسدروف: "..التفكير ضاجٌّ بالكلمات". عن: أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية ، مجلس الثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٩٦، ص، ٣٤.

١٦- أنموذجنا في ذلك هو ما يعرف بصحيفة النبي(أو ميثاق المدينة)، الذي وضعه الرسول الكريم بمجرّد وصوله إلى المدينة المنورة، وهو ما يمكن أن نعتبره أول دستور مدني في التاريخ. كان يرمي إلى تنظيم العلاقة بين جميع طوائف وجماعات المدينة، وعلى رأسها المهاجرين و الأنصار والفصائل اليهودية وغيرهم. من بين ما ورد فيها:

" هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن اتبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

إنهم أمة واحدة من دون الناس.

المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.
- وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.
- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.
- وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف...".

١٧ الشاعر أمين ناصر الدين (١٨٧٦ / ١٩٥٣). يعتبر أحد الأعلام اللبنانيين في البيان واللغة والشعر في الأدب الحديث.